روائع ملخصة من قصص الحب العالمية

١ - بول وفرجيني

للكاتب الفرنسي برناردين دي سان بيير

بقلم الأستاذ علي محمد سرطاوي

حياة المؤلف :

« ولد في مدينة الهافر في فرنسا عام ١٧٣٧ ، ولما بلغ الثانية عشرة من عمره ، رحل إلى جزر المارتنيك الأميركية فأثارت الرحلة في نفسه رغبة شديدة في دراسة نباتات المنطقة الحارة ولما أتم دراسته وتخرج في فن الهندسة ، التحق بخدمة الجيش الروسي ، مدة قصيرة ، ثم رحل إلى جزيرة موريشوس Mauritius في المحيط الهندي ، وكانت تابعة لفرنسا في ذلك الوقت ، فأفادته تلك الرحلة علما . وعاد إلى فرنسا عام ١٧٧١ يعتنق آراء جان جاك روسو الحرة فيما يتصل بالحضارة وأنها مفسدة لطبيعة الانسان . وفي عام ١٧٨٤ نشر ثلاثة مجلدات تحت عنوان : « دراسات في الطبيعة » قال عنها العلماء في عصره إنها أفكار شعرية أكثر منها أفكار علمية ، ولم تصادف ما كان يقدر لها من الانتشار .

وبعد سنوات قليلة نشر قصة « بول وفرجيني » فلقيت رواجا عظيما ، وعين بعد ذلك مديرا لحدائق الشاه الملكية ثم استاذا للدراسات الأخلاقية . ولما أحيل على التقاعد زمن نابليون بونابرت أجزل له العطاء فعاش سعيدا في عزلة شعرية ، ورزق في هذه الفترة طفلة سماها (فرجيني) ولما بلغ سن الواحد والستين من عمره رزق طفلا سماه (بول) . وعاش المؤلف بعدها إلى السابعة والسبعين ومات سنة ١٨١٤ قبل موقعة واترلو بسنة واحدة » .

القصة :

أراد المؤلف من قصته الوصول إلى غايتين : الأولى تصوير تربة ونباتات المنطقة الحارة وما بينها وبين أوربا من فروق . الثانية : أن يرسم صورة رائعة لمجتمع ساذج مثالي لم تعرف المدنية الطريق إليه .

الراوية : شيخ صادفه المؤلف خلال إقامته في جزيرة موريتوس قال الشيخ :

في أوائل القرن الثامن عشر ، عاشت سيدتان متجاورتان في بقعة قريبة من ميناء سنت لويس . كانت إحداهما مدام دي لا تور ، وهي أرملة شاب ثري مندي ، مات وهو يحاول ابتياع عدد من الرقيق في جزيرة مدغشقر ، وكانت الأخرى شابة ريفية من مقاطعة بريتاني واسمها مرغريت ، فرت من مسقط رأسها لتفتش عن عالم جديد لا يتصل علمه بزلة اقترفتها . ولدت للأولى طفلة سمتها (فرجيني) وولد للثانية طفل سمته (بول) . عاشت السيدتان في ود متبادل ، تتعاونان على ما تطلبه الحياة من كدح ومجهود .

وشب الفتى والفتاة وفي نفسيهما شعور الأخ لأخته ، ولما بلغا أشدهما كان في نية السيدتين تزويجهما وربط قلبيهما برباط متين من قداسة الزواج ، لولا أن حاكم الجزيرة اقترح إرسال فرجيني إلى فرنسا لتتابع دراستها عند أقربائها الأغنياء هناك .... وقد اتفق الرأي على ذلك ودنت ساعة الوداع والفراق .

* * *

دنت ساعة العشاء فالتففنا حول المائدة ، وحالت العواطف المتباينة التي تعصف بنفوسنا بيننا وبين الطعام ، إذ كان يلفنا صمت رهيب ... وكانت فرجيني أول من ترك المائدة وتبعها بول وشيكا ، واتخذا مجلسهما تحت ظل هذه الشجيرات التي تنفياً ظلها الآن وصمتنا ... وكانت الليلة نموذجا رائعا لليالي المناطق الحارة الساحرة التي يعجز القلم عن وصفها : فقد أطل القمر من السماء وعلى جوانبه هالة فتانة من غيوم مبعثرة موشاة باللجين ؛ وأخذ نوره ينتشر ويمتد إلى جبال الجزيرة ، وبدت قممها البعيدة غارقة في يم عميق من النور ؛ وسكنت الريح ، وأخذت الأحراج البعيدة والوديان العميقة والقمم الصخرية الحالمة ترد صدى أصوات جيلة من حناجر الطيور التي طفقت تتداعب في أعشاشها مرحة بما يضفيه عليها جمال الليلة من فرح وحنان ورغبة في

الوجود ... ، وتلألأت النجوم فى محيطها البعيد مضطربة تبعث بنورها إلى الدنيا النائمة وكأنها محبات يطفن بحبيب...

كانت فرجينى تتطلع إلى الأفق البعيد وكأنها تفتش عن مجهول ، ورأت على جبين الأفق مما يلى الميناء أنواراً حمراء مبعثرة على الشاطىء من قوارب الصيد ، ورأت نوراً قوياً وقد وقف إلى جانبه خيال جسم كبير ... فأعادها ما رأت إلى نفسها وأيقنت أن ذلك الجسم الكبير ليس إلا تلك السفينة التى ستفرق بينها وبين بول ، فأدارت وجهها وهى تغالب مالا تحتمل من آلام قلبها مخفية دموعها عن الذى تبكيه . وكنت أنا ومدام دى لاتور ومرغريت غير بعيدين عنهما ، وقد ساعدنا سكون الليل على الاستماع إلى مادار بينهما من حديث ما زال يعيش فى ذاكرتى :

بول : لقد علمت بأنك ذاهبة عنا وشيكا إلى فرنسا ، وكأنك غير وجلة من أخطار البحر التى كان يرهبك مجرد ذكرها ! ؟

فرجينيا : إنما هو واجب علىّ يتطلب منى إطاعة أهلى .

بول : اتتركيننا من أجل قريب بعيد لم تقع عينك عليه ؟ !

فرجينيا : شد ما يؤلمنى أن أكون مضطرة إلى ذلك ! فوالدتى تدفعنى إليه ، والكاهن الذى اعتدت أن أعترف له قال لى : إنها إرادة الله ، ولا بد من الذهاب ، وان الحياة مسرح للتجارب ... ويا حسرتاه ! ما أمر ذلك وأوجعه فى نفسى !

بول : ماذا ؟ ! تجدين أسبابا كثيرة لتبرير ذهابك عنا ، ولا تجدين سبباً واحداً لبقائك بيننا ! ! السبب الحقيق لسفرك تذكريه ! إنه الثروة التى تغرى النفوس ! إنك لواجدة فى ذلك العالم الذى ستذهبين إليه الثروة وإلى جانبها أشخاصاً أكرم منى مولدا وأرومة وأرسع ثراء ، تستطيعين فى سهولة ويسر أن تتخذى منهم أخا وصديقاً ! شدّ ما يؤلمنى أننى لا أستطيع أن أقدم إليك شيئاً من هذه الأمور ! أتكونين أسعد منك الآن إذا تم لك ذلك ؟ ! أى شاطئ ستذهبين إليه وتجدينه أعز عليك من هذه البقعة التى فتحت عينك على نور الحياة فيها ؟ وأية مخلوقات فى مقدورك إيجادها أحب إليك وأحنى عليك منا ! كيف تحتملين العيش بعيدة عن حنان أمك الذى اعتدت عليه وماذا يكون شأنها ، وقد تقدمت بها السنون ، حينما تتلفت فلا تجدك على السائدة إلى جانبها ، ولا تستعين بك إذا ما همت بالتحرك من مكان إلى مكان ! ! ماذا يكون حظ أمى من اللوعة عليك وهى تكن لك أقوى العواطف وأخلصها ؟ ! ماذا أستطيع من القول لها وهما تجهشان فى بكاء مرير موجع عليك ؟ ! أما عن نفسى ! فلا أقول لك شيئاً أيتها الظالمة ! ماذا يكون مصيرى حينما لا أراك فى الصباح ، ولا نتلاقى فى المساء ! وعند ما أحدق فى هاتين النخلتين اللتين غرستا يوم ولادتنا ، واللتين بقيتا شاهدتين على ودنا الذى لا يزول !

ليس فى مقدورى أن أثنيك عما اعتزمت ! ولكن أليس فى استطاعتك السماح لى بمرافقتك وركوب البحر إلى جانبك ! سأحرسك من عواصف البحر وأحميك ! سأضع رأسى على صدرك وأبعث الدفء من قلبى المحترق إلى قلبك الرحيم ، وهناك فى فرنسا سأكون خادمك الأمين ، وإذا احتاجت سعادتك إلى حياتى فسأبذلها رخيصة تحت قدميك !

وما وصل إلى هذا الحد من الألم حتى غلبت عاطفته العنيفة لسانه عن الكلام فصمت ... واستمعنا بعد ذلك إلى فرجينيا تتحدث إليه بصوت مرتجف تقطعه شهقات من بكاء عنيف مكبوت .

* * *

قالت فرجينيا : إننى مغتربة لأجلك !؟ أنت الذى أراه يرهق جسده بالعمل المضنى كل يوم ليقيم أود أسرتين بائستين ! وإذا كنت قد قبلت هذه الفرصة لأكون غنية فذلك لأننى أود أن أرد لك جميلك مضاعفاً ألف مرة ! أتحسب أن كنوز الدنيا تعادل حبى وحنينى إليك ! لماذا جرحت عواطفى بالتحدث عن نسبك ؟ وإذا كان ممكنا أن أختار لى أخا ، فهل تحسب أننى أعدوك فى الاختيار ؟ إنك يا بول لأعز إلى قلبى من الأخ والأهل جميعاً ! كم جاهدت نفسى لأروضها على احتمال البعد عنك ! ، أعنى على انتزاع نفسى من هذا المكان العزيز إلىّ كالحياة نفسها ، إلى أن يبارك الله زواجنا حينما أعود إليك إننى أستطيع احتمال كل لون

من ألوان الألم والحرمان فى الحياة ولكننى لا أستطيع احتمال منظر هذا الحزن العميق المخيم عليك !

وما كادت تتم فرجينيا حديثها حتى صرخ فى ألم حزين وضمها إلى صدره وهو يصيح : سأذهب معك ! لن تستطيع قوة فى الدنيا التفريق بيننا !

واقتربنا منهما فقالت له مدام دى لاتور أم فرجينيا : يابنى ! وماذا يكون مصيرنا إذا ذهبت معها ؟

قال بول فى صوت متهدج حزين يردد ما قالته : يا بنى ! يابنى ! أنت الأم التى تريد التفريق بيننا ، كيف تريدين ذلك وقد نشأنا أخوين لا نفترق أبدا ! كيف ترسلينها وحيدة إلى أوربا ، إلى تلك البلاد غير الكريمة التى ضنت عليك بمأوى فى الماضى ! وإلى أقارب لم يسألوا عنك وعنها أبدا ؟ فى استطاعتك القول إنها ليست شقيقتى وأنت ليس لى سلطان عليها . إنها كل شىء لدى ! هى ثروتى ، وحياتى ، وأسرتى . لقد جمعنا فى الماضى سقف واحد ومهد واحد ، وسوف يجمعنا قبر واحد أيضا ! فإذا ذهبت فإنى لاحق بها .

سيمتنعى الحاكم من ذلك كما يخيل إليك . وهل يستطيع الحاكم منعى من إلقاء نفسى فى البحر ؟ هل فى مقدوره منعى من اللحاق بها سابحا ؟

سيكون البحر أحب إلى من اليابسة بعد سفرها على متن أمواجه ! وما دام قد قدر لى أن لا أعيش معها فلا أقل من أن أموت وأغمض عينى وهى آخر ما أبصر فى الوجود . أيتها الأم الوحشية ! أيتها المرأة التى لا تعرف الرحمة ! ليت المحيط الذى تدفعين بها إليه ألا يرجعها إليك أبدا ! وليت الأمواج التى بتعميد جسدى وجسدها إليك يثير مرآها عذابا لا ينقطع من تأنيب الضمير فى قلبك الجلمود !

فأسرعت إليه وأمسكت بذراعيه ، لأن اليأس قد جرده من عقله ، فقد جحظت عيناه ، وتصبب جبينه عرقا ، واصطكت ركبتاه ، وأحسست بقلبه يخفق خفقانا شديدا .

قالت فرجينيا : يا عزيزى بول ! إننى لأشهد أيام طفولتنا الغالية وآلامك وآلامى ، وكل ذكرى حبيبة يمكن أن تربط مخلوقين بائسين مثلنا ، بأننى سأكون لك ! إننى لأسألكم أن تشهدوا أيضا أيها الذين ربيتمونا منذ طفولتنا على ما أقول ! وأنت يارب الذى لم أدنس اسمه الكريم بالكذب كن شاهدا على ! وأنت أيها البحر الذى سأعتلى متن أمواجك ، ويا أيها الهواء الذى أملأ رئتى منك — كونا شاهدين على ما أقول !

لقد عاد إليه هدوؤه ، فطاطأ رأسه على أثر سماع كلماتها الحبيبة وبكى بكاء مرا اختلطت دموعه بدموع أمه التى أسرعت إليه تحتضنه وتردد صدى آلامه بسيل من الدموع . ثم قالت لى مدام دى لا تور : إننى لا أستطيع احتمال هذا ، فلن تذهب ابنتى إلى فرنسا مهما كان الثمن الذى سأدفعه . خذه معك إلى منزلك فلم يذق أحد منا النوم منذ أسبوع ونحن على مثل ما ترى من اللوعة والحزن والدموع .

قلت لبول : إن فرجينيا لن تسافر يا بنى ، وغدا سنتحدث إلى الحاكم فى أمر بقائها . هيا بنا إلى منزلى واترك فرصة لأسرتك تذوق بعض الراحة ، فقد انتصف الليل . استجاب بول إلى رغبتى متحاملا على نفسه يجر رجليه خلفه وكأنما مربوطتان فى جسم غيره وقضى الهزيع الأخير من الليل فى نوم قلق متقطع ... وعاد مسرعا إلى أسرته عند بزوغ الفجر .

* * *

سافرت فرجينيا إلى فرنسا وأدخلتها عمتها الغنية إحدى المدارس ، وبعد عامين أعدت لها زواجا ملائما رفضته الفتاة رفضا قاسيا احتفاظا بالعهد الذى قطعته على نفسها لبول . وما عتمت أن فرت إلى المحيط الهندى على ظهر سفينة كانت تقصد الجزيرة ، وما كادت تقترب من الشاطىء حتى ثارت عاصفة أغرقت السفينة وغرقت مع الركاب فرجينيا التى كانت تطوى نفسها على أسعد ما تكنه النفوس من الفرحة بلقاء بول ووالدتيها والجزيرة والشجيرات .

وحاول بول أن يصارع العاصفة فيصل إلى السفينة قبل غرقها ولكن الموج رده إلى الشاطىء مهشما محطما ، وما لبث أن مات ودفن إلى جانب فرجينيا فى قبر واحد .

على محمد سرطاوى

استعنا على تلخيص الرواية بكتاب :

Great Love Scenes From Famous Novels Mason

سكك حديد وتلغرافات وتليفونات الحكومة المصرية

دليل تليفونات الاسكندرية طبعة أبريل سنة ١٩٤٧

يمكنكم أن تحجزوا الأماكن التى تختارونها للاعلان عن أعمالكم فى دليل تليفونات الأسكندرية الذى سيصدر فى شهر أبريل سنة ١٩٤٧ .

والإعلان في الدليل المذكور له مزايا خاصة إذ يتجدد كل يوم طوال مدة سريان الطبعة ويتداوله آلاف المشتركين وبه أماكن خالية تستطيعون استئجارها بأسعار زهيدة.

ولزيادة الايضاح اتصلوا :

بقسم النشر والاعلانات

بالاداره العامه ــ بمحطه مصر

مطبعة الرسالة